الإمام سحنون وجهوده في الفقه المالكي

Alimam Sahnoun and his efforts in the Maliki jurisprudence

علي العايدي

ملخص البحث

يعتبر المذهب المالكي من **المذاهب الإسلامية السنيّة**، والذي يتبنى الآراء **الفقهية** للإمام **مالك بن أنس** رحمه الله، حيث تبلور مذهباً واضحاً ومستقلاً في القرن الثاني الهجري، فقد انتشر المذهب المالكي في **الحجاز** انتشاراً واسعاً، ثم توسع في عموم بلاد **المغرب العربي والإمارات والبحرين، وقطر، والكويت، والسودان وصعيد مصر**، والمنطقة الشرقية من **السعودية** ووسط وغرب **أفريقيا** ، وذلك لأسباب عديدة كالرحلات العلمية إلى بلاد الحجاز، حيث لعبت دورا بارزا في نشر المذهب المالكي، وخاصة في بلاد المغرب العربي والأندلس وغيرها من البلاد الإسلامية، وقيام دولة الأغالبة والتي جعلت لإفريقية وأهلها شخصية مميزة وفريدة، فمن أهم الانجازات التي اهتمت بها هو تجديد مسجد القيروان في بلاد تونس، المعروف بمسجد عقبة بن نافع، فكان أول المراكز العلمية في المغرب العربي، وقد أتاح أمراء الأغالبة المجال أمام الفقهاء في ذيوع المذهب وانتشاره وذلك عن طريق تعيين أبرز فقهائه في المناصب الدينية والإدارية المختلفة، اهتمام فقهاء المالكية في بلاد شمال افريقيا وفي مدينة القيروان خاصة باتباع مذهب الإمام مالك، واجتهادهم في تأليف المصنفات حول المذهب. ومن أبرز الفقهاء الذين أسسوا للمذهب المالكي الإمام عبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون الذي نشأ نشأة علمية في بيت علم وفقه، ثم رحل الى المشرق ليأخذ فقه الإمام مالك بن أنس ولكن لم يسعفه الحظ حيث توفي الامام مالك قبل دخول سحنون إلى المدينة المنورة، ولكنه لم يحرم الخير حيث لقي كبار تلاميذ الإمام مالك وحظي بالسماع منهم، ثم رجع الى مصر وتلقى العلم عن عبد الرحمن بن قاسم من كبار تلامذة الإمام مالك ودرس عليه دراسة مستفيضة وكتب كل ما سمع منه ودوّنه في كتاب سماه المدونة الكبرى.

الكلمات المفتاحية: سحنون، المدونة الكبرى، الفقه المالكي، جهود.

Sahnoun, Elmudawwanah, Fiqh al-Maliki, efforts

ABSTRACT

The Madhab of Maliki is considered among the powerful mazahib of Muslim Sunni, which embraces the doctrinal opinions of Imam Malik bin Anas, where he crystallized a clear doctrine and independent in the second century of (hijrah), al-Maliki's doctrine in al-Hijaz has spread widely, and has expanded in the whole of the Maghreb, United Arab OF Emirates, Bahrain, Qatar, Kuwait, Sudan, and Egypt, the eastern region of Saudi Arabia, Central and West Africa, for many reasons such as the trip to the country of is called (Al-Hijaz), where it played a prominent role in the propagation of al-Maliki's doctrine, especially in the Maghreb, Andalusia

and other The Islamic country, the creation of the Alaghalibah state, which has made Africa and its people a distinctive and unique personality, one of the most important achievements. The renovation of the Kairouan Mosque in Tunis, known as the Aqaba bin beneficial mosque, was the first scientific center in the Maghreb the Alaghalibah princes have allowed the scholars to spread the doctrine and its propagation by appointing the most prominent (FUQAHA) to the various religious and administrative positions, the interest of Malta in the North African country and in the city of Kairouan, in particular by following the Imam Malik's doctrine, and their jurisprudence in the authorship of the literature on the doctrine. One of the most prominent jurists (FUQAHA) who founded the al-Maliki doctrine was Imam Abdul Salam bin Saeed, known as Sahnoun, who grew up in the house he learned according to him, then he went to the East in order to take the fiqh of Imam Malik bin Anas but he did not have luck where the Imam Malik died before Sahnoun entered into Medina, but he did not deprive the good of the imam and the recipient of his elders, and then he went back to Egypt and received the knowledge of Abdul Rahman bin Qasim of the main students of Imam Malik and studied from him thoroughly, and wrote down All what he heard from him in a book called (ELMUDAWWANAH ELKUBRA).

إشكالية البحث

تكمن إشكالية هذا البحث في عدم وجود رؤية واضحة لمعرفة مؤسس المذهب المالكي في مدينة القيروان خاصة وبلاد المغرب عامة، ونسبة صاحب المدونة الكبرى إلى مؤلفها، فكثير ممن ينسبها إلى الإمام مالك، وهي ليست كذلك بل هي رواية ابن القاسم عن الإمام مالك وتنسيق وتهذيب وترتيب الإمام سحنون، ونجد إشكالية أخرى في تعدد أسماء المدونة كالمختلطة والأسدية، فجاء هذا البحث لدراسة هذه الإشكالية وتوضيحها وتحرير القول في نسبة المدونة إلى صاحبها.

أهمية البحث:

وتبرز أهمية هذا البحث في الحاجة إلى إبراز هذه الشخصية العلمية والجهود التي بذلها في سبيل نشر العلم وترسيخ السنة وإظهار مذهب أهل المدينة في بلاد المغرب والأندلس.

منهجية البحث:

اعتُمِد في البحث المنهجُ الاستقرائي في جمع المسائل التي تكلمت عن هذه الشخصية العلمية وعن إنجازاته العلمية، وذلك بالرجوع إلى أشهر كتب المعتمدة في المذهب المالكي، والمنهج الوصفي التحليلي في تحليل وربط الموضوع ببعضه البعض، ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث إبراز شخصية الإمام سحنون التي جمعت بين الفقه والقضاء وأسست للمذهب المالكي.

الدراسات السابقة:

اطلع الباحث على بعض المؤلفات التي كتب في هذا الموضوع، فوجد منها بحثا للدكتور محمد زينهم محمد عزب بعنوان "الإمام سحنون"، وهو بحث قيم في ذاته حيث قسمه مؤلفه الى ثلاثة أبواب فتكلم في الباب الأول عن الحياة السياسية والإجتماعية في إفريقية في حياة الامام سحنون، واما الباب الثاني فقد تطرق فيه إلى حالة مجتمع الأغالبة في عصر سحنون وموقفه منهم، ثم انتهى في الباب الثالث بيان ثقافة سحنون وآثاره، وأما المؤلف الثاني فهو بعنوان "سحنون مشكاة نور وعلم وحق" للمؤلف سعيد أبو جيب، وهو قبس من حياة الإمام سحنون رحمه الله ذكر فيه شيئا من سيرته العطرة ودونها بأسلوب القصة حيث اتخذ سحنونا أداة دعوة للإسلام عقيدة ونظاما ودولة، فكان المؤلف مترجما لسيرة الامام سحنون في ثوب قصة أدبية، وقد جاء بحثي هذا ليكمل هذه المسيرة المباركة ببيان جهد هذا الامام في تأسيس المذهب المالكي وتأصيله من مدونته الشهيرة التي كانت اللبنة الأولى لهذا المذهب في إفريقية وفي بلاد المغربي العربي.

المقدمة

اهتم المؤرخون من فقهاء المالكية بتراجم الأئمة في شمال افريقيا والأندلس بتصنيف المصنفات، وقد كان لهذه المصنفات الدور البارز في المحافظة على سير علمائنا وأئمتنا الذين تمثلت فيهم الأخلاق والأصالة حتى غدوا نجوما لا يفنى مع الزمان لها نور، ولا يبلى أبد الدهر لها ذكر.

كانت سيرهم مثلا في الخلق والشجاعة والترفع عن عرض الدنيا، وقد برز من هؤلاء علَم من أعلام إفريقية يحمل مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله، ألا وهو الفقيه القاضي الأستاذ المعلم عبد السلام بن سعيد الملقب بسحنون الشيخ العربي الأصيل الذي ينحدر من أسرة عربية من آل تنوخ هاجرت الى إفريقية من مدينة حمص.

وهب الله الإمام سحنون عقلا ذكيا وخلقا حكيما، فحبس نفسه للعلم، وأخلص في طلبه، فلم يلبث صيته أن ارتفع، وتقاطر عليه الطلاب يسمعون منه، ويتعلمون على يديه، وينهلون من علمه، وأحبه أقرانه من الفقهاء وأهل العلم.

وكان حسن الهيئة جميل الثياب، حسن الكلام عفيف اللسان حتى أصبح مثلا يحتذى به، وقد نجح نجاحا عظيما فصار شيخ عصره وعظيم أيامه، وترك لنا مدوّنة عظيمة بأقوال إمام دار الهجرة – الإمام مالك ان أنس رضي الله عنه –، وهي من أعظم الأعمال العلمية في تاريخ الفقه الاسلامي[١].

يعتبر الإمام سحنون من علماء القيروان بتونس، حيث برز في علوم الفقه والحديث والفتوى والقضاء، وكان سيفا مسلّطا على المبتدعة وأهل المظالم، وكان يضرب به المثل في الزهد والورع والتقوى.[٢]

وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت في الحث على الصبر في طلب العلم:

---

١ عزب، الإمام سحنون، ص٨، سعدي ابو جيب، سحنون مشكاة علم ونور، ص ٧

٢ موقع الدرر السنية على الإنترنت. dorar.net نتائج البحوث وخواتيم الكتب. ج٢. ص٤٢٢.

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته *** ومدمن القرع للأبواب أن يلجأ [1]

وقد قمت بتقسيم بحثي إلى مبحثين:

المبحث الأول عن التعريف بالإمام سحنون ونشأته العلمية ورحلته إلى المشرق ثم عودته الى بلده إلى أن أصبح قاضيا للقيروان.

المبحث الثاني فهو جهود الإمام سحنون العلمية وأثر ذلك في المذهب المالكي، حيث تناول المدونة الكبرى التي ألفها ودوّنها الإمام سحنون، وآثارها في بلاد المغرب والعالم الإسلامي.

المبحث الأول: ترجمة الإمام سحنون

المطلب الاول: اسمه ونسبه

أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة بن عبد الله التنوخي الحمصي الأصل، المغربي، القيرواني، المالكي، قاضي القيروان[2] الملقب سحنون، كانت ولادته أول ليلة من شهر رمضان سنة ستين ومائة هجري (١٦٠هـ – ٨٥٤م)[3]. قال عيسى بن مسكين: ولد سحنون في قرية يقال لها مرنانة الشرق وأعرف البيت الذي ولد فيه[4]، وهو صليبة من العرب، قدم أبوه سعيد في جند حمص، أصله شامي من حمص، قال ابنه محمد: قلت: يا أبت أنحن صليبة من تنوخ؟ فقال لي: وما تحتاج إلى ذلك؟ فلم أزل به حتى قال لي: نعم، وما يغني عنك ذلك من الله شيئاً إن لم تتقه[5]، وكانت قبيلته تنوخ من عرب الشام وأصلها من اليمن[6].

وسحنون: لقب له وهو اسم طائر حديد بالمغرب يسمونه سحنوناً لحدة ذهنه وذكائه[7]ولحدته في المسائل [8]، وسحنون: بفتح السين المهملة وضمها وسكون الحاء المهملة وضم النون وبعد الواو نون ثانية[9] وقيل إن "سحنون" بضم السين المهملة وسكون الحاء المهملة وبنونين، وهو أول المطر والريح [10].

---

١ مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. ج١، ص١٠٤.

٢ الذهبي، سير أعلام النبلاء. ج١٢، ص٦٤.

٣ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ج٣، ص١٨٣.

٤ المالكي، رياض النفوس. ج١، ص٣٤٦.

٥ القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك. ج٤. ص٤٥.

٦ عزب، الامام سحنون، ص٦٥

٧ ابن خلكان، وفيات الأعيان. ج٣، ص١٨٣.

٨ ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. ج٢. ص٣٠.

٩ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ج٣، ص١٨٣.

١٠ الجرجاويّ، شرح التصريح على التوضيح. ج٢، ص٦٦٧.

المطلب الثاني: نشأته

نشأ الإمام سحنون في بيت ميسور، فقد ورث من أبيه ضيعة صغيرة ولكنها كانت تغل عليه ما يكفيه، فاستغنى بهذا الدخل المتواضع عن طلب الوظائف أو السعي إلى الرزق، فنشأ قنوعا، راضيا بما عنده غير ملتفت الى ما عند السلطان وأولي الأمر، فوهب نفسه للعلم وأخلص لتلاميذه وأخلصوا له[1].

تلقى علومه الأولى في كتاتيب (دور حفظ القرآن)، ولما شب واشتد عوده وأنس في نفسه استعدادا للدرس والتحصيل استعان في ذلك بأبيه وكبار مشايخ إفريقية، منهم الشيخ العلامة على بن زياد الذي عني به ودرس له موطأ الإمام مالك بن أنس[2].

المطلب الثالث: رحلته في طلب العلم

كانت بداية حياة الإمام سحنون العلمية من القيروان حيث أخذ عن مشايخها، كأبي خارجة وبهلول، وعلي بن زياد وابن أبي حسان، وابن غانم، وابن أشرس، وابن أبي كريمة وأخيه، حبيب. ومعاوية الصمادحي وأبي زياد الرعيني، وكانت رحلته إلى زياد بتونس، وقت رحلة ابن بكير إلى مالك[3].

ولما أظهر سحنون حسن استعداده وإقباله على العلم، أشار عليه معلمه علي بن زياد للذهاب إلى المدينة المنوّرة موطن إمام دار الهجرة مالك بن أنس ومعقل العلماء والفقهاء، فعزم الإمام سحنون على الرحيل إلى المشرق، وكانت تلك عادة أهل المغرب يرحلون الى المشرق لتلقي العلوم الشرعية.[4]

وقد اختلف المؤرخون حول رحلة سحنون للمشرق على قولين:

القول الأول: رحل إلى المشرق عام (١٧٨- ١٧٩ هـ)، وأيد هذا الرأي ابنه محمد حيث قال: خرج أبي إلى مصر أول سنة ثمان وسبعين في حياة الإمام مالك [5]، رحل وهو ابن ثمانية عشر عاما، فكانت أول محطة له مصر، حيث لقي بها الفقيه المالكي عبد الرحمن بن قاسم العتقي الذي كانت ترد إليه جوابات الإمام مالك ردا على المسائل الفقهية التي كان يبعث بها إليه، وقد أعجب به ابن القاسم ، فمنحه كل ما عنده من علم وفقه، وبهذا العلم الذي أخذه سحنون عن ابن قاسم فأقام مدونته الكبرى التي تعتبر من أمهات كتب الفقه المالكي[6]، وتوفي الإمام مالك

---

١ عزب، محمد زينهم محمد، الامام سحنون، ص٨

٢ انظر المصدر السابق، ص ٥٦ /٦٦

٣ القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك. ج٤، ص٦٤.

٤ عزب. محمد زينهم محمد، الامام سحنون، ص٦٦

٥ القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك. ج٤، ص٤٦.

٦ عزب. محمد زينهم محمد، الامام سحنون، ص٧٦

(١٧٩هـ)[١]، ولم يره الإمام سحنون ولم يسمع منه مباشرة ، لكن سمع من كبار تلاميذه، فقيل له: فما منعك من السماع منه؟ قال قلة الدراهم، وقد سمع ممن مات قبل ثمان وثمانين من المدنيين، كابن نافع (ت: ١٨٦هـ)[٢].

سمع الإمام سحنون في رحلته إلى مصر من ابن القاسم، وابن وهب، وأشهب، وطليب ابن كامل، وعبيد الله بن عبد الحكم، وشعيب بن الليث، ويوسف بن محمد.[٣] أما في بلاد الشام فأخذ عن الوليد بن مسلم وأيوب بن سويد.[٤]

القول الثاني: رحل سحنون إلى الحجاز عام (١٨٨هـ)[٥]، فسمع من سفيان بن عيينة، ووكيع وعبد الرحمن بن مهدي وحفص بن غياث، وأبي داود الطيالسي، ويزيد بن هارون، والوليد بن مسلم، وابن نافع الصائغ، ومعن بن عيسى، وأبي ضمرة وابن الماجشون، ومطرف وغيرهم.[٦]

حج سحنون مع بن القاسم وابن وهب وأشهب وكان يزامل بن وهب ،[٧] وانصرف إلى إفريقية، سنة إحدى وتسعين ومائة (١٩١هـ). قال سحنون: سمع منّي أهل جدابية سنة إحدى وتسعين، وفيها مات ابن القاسم، قال: وخرجت إلى ابن القاسم، وأنا ابن خمس وعشرين. وقدمت إفريقية وأنا ابن ثلاثين سنة، وأول من قرأ عليّ عبد الملك زونان [٨].

لقد عرف العلماء برحلتهم في طلب العلم، وبقدر جهدهم نال المسلمون على هذه العلوم التي لا تحصى ولا تعد، يقول ابن خلدون: "إن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد في كمال في التعلم، والسبب أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة ، إلا أنّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، والرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال.[٩]

---

١ القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك. ج٢، ص١٤٦.

٢ المصدر السابق. ج٤، ص٤٦.

٣ انظر المصدر السابق. ج٤، ص٤٧.

٤ عزب. محمد زينهم محمد، الإمام سحنون. ص٦٧

٥ القاضي عياض. ترتيب المدارك. ج٤، ص٦٤.

٦ انظر المصدر السابق. ج٤، ص٦٥.

٧ عزب. محمد زينهم محمد، الإمام سحنون، ص٦٨

٨ القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك. ج٤، ص٤٦.

٩ العبدة ، نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون ، ص ١٨٠

المطلب الرابع: تلاميذه

رجع الإمام سحنون إلى مدينة القيروان سنة إحدى وتسعين ومائة (١٩١ هـ)، فنشر مذهب عالم المدينة الإمام مالك بن أنس، وأخذ عنه رحمه الله عدد كبير من العلماء والفقهاء، واختلف المؤرخون في عدد التلاميذ الذين أخذوا عنه ما بين أربعمائة [١]، وقيل إن هناك جماعة من تلاميذه معروفون بصحبته غلب على كثير منهم العبادة فالرواة عنه سبعمائة (٧٠٠) [٢]، نذكر منهم ما يلي:

١ – ابنه محمد بن سحنون تفقه بأبيه وكان إماما في الفقه، ثقة عالما بالذبّ عن مذاهب أهل المدينة، عالما بالآثار، صحيح الكتاب لم يكن في عصره أحذق بفنون العلم منه، وكان الغالب عليه الفقه والمناظرة، وكان يحسن الحجة والذبّ عن أهل السنة والجماعة، وكان من العلماء الفضلاء.

وقال سحنون: ما أشبّهه إلا بأشهب.[٣] له مؤلفات كثيرة منها كتابه الكبير الجامع لفنون من العلم، وكتابه المسند في الحديث، وكتاب السير، وكتاب تفسير الموطأ، وكتاب نوازل الصلاة، وكتاب الزهد وما يجب على المتناظرين من الأدب وكتاب أدب المتعلمين وغر ذلك مما هو كثير، ولد سنة ٢٠٢ هـ وتوفي سنة ٢٥٥هـ.[٤]

٢ – ابنته خديجة بنت سحنون من أحسن النساء وأعقلهن، وكانت من خير النساء. ذكر أبو داود القطان أن أحمد بن لبدة أرسله لسحنون يخطبها عليه. فذكرت له. فقال: هممت بذلك. فأتاه محمد، يعني ابنه فشاوره، فقال: لا أصنع – ما يحبه – فسكت عنه، الى أن توفي سحنون. فأرسلني الى محمد، فذكرت ذلك له، فقال: كيف أصنع ما لم يصنع أبي؟ فسكت عنه، حتى توفي محمد، فأرسلني إليها، فقالت لي: ما لم يصنع أبي وأخي، أنا أصنعه؟ لا أفعل، فماتت وهي بكر.[٥]

كان أبوها يستشيرها في مهمات أموره، حيث إنه لما عرض عليه القضاء لم يقبله إلا بعد أخذ رأيها، وقد أخذت العلم عن أبيها، وكانت مرجع فتوى نساء عصرها [٦]، فقد كانت تلقي دروسها على طالبات الفقه[٧]، توفيت سنة (٢٧٠ هـ).

٣ – أبو مروان عبد الملك، أول من قرأ على الإمام سحنون[٨]، ويعرف بزونان بن الحسن بن محمَّد بن رزين بن عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الفقيه الورع الزاهد العالم الفاضل قاضي طليطلة من الطبقة

---

١ عزب. محمد زينهم محمد، الامام سحنون، ص ١٨٩

٢ مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. ج١، ص١٠٤.

٣ ابن فرحون، رهان الدين اليعمري، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. ج٢، ج١٣٣.

٤ مخلوف. محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. ج١، ص١٠٥.

٥ القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك. ج٤، ٢٢٢،٥٧.

٦ سعدي ابو جيب، سحنون مشكاة علم ونور وحق. ص ٩٠

٧ عزب، الامام سحنون، ص ٢٢٦

٨ القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك. ج٤، ٤٦.

الأولى ممن لم يرَ مالكاً، سمع من ابن القاسم وأشهب وابن وهب وغيرهم وعنه ابن وضاح وغيره وكان يحيى بن يحيى الليثي يعجب من كلامه. توفي سنة (٢٣٢هـ).١

٤ – جبلة بن حمود بن عبد الرحمن بن جبلة الصدفي أبو يوسف من أبناء القادمين مع حسان بن النعمان، أسلم جدّه على يد عثمان بن عفان رضي الله عنه، سمع من سحنون، وعون، وأبي إسحاق البرقي، وداود بن يحيى، وغيرهم، وقد روى عن سحنون المدونة،٢ والموطأ والمختلطة.٣

قال أبو العرب: كان صالحاً ثقة، زاهداً، كان بقصر الطوب ثم لزم القيروان فسمع منه الناس، وكان صحيح السماع من سحنون.

قال أبو النصر: رحم الله أبا يوسف. فلقد كان سيد أهل زمانه.

وقال سحنون وقد رآه مقبلاً: إن عاش هذا الشاب، فسيكون له نبأ وهو أزهد أهل زمانه. قال بعضهم: ما سمعته قط يذكر الدنيا بمدح ولا ذمّ.

وقال أبو موسى: ما رأيت أزهد من جبلة فهو من أفضل رجال سحنون.٤

٥ – ابن عبدوس أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، فقيه المغرب، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبدوس: أصله من العجم من موالي قريش، وهو من كبار أصحاب سحنون وأئمة وقته.٥

قال أبو العرب: كان ثقة، إماما في الفقه، ذا ورع وتواضع، وكان أشبه شيء بأحوال شيخه سحنون، في فقهه وزهادته وملبسه ومطعمه، وكان حسن الكتاب، حسن التقييد، مات وهو ابن ثمان وخمسين سنة، قال لقمان بن يوسف: أقام ابن عبدوس سبع سنين يدرس، لا يخرج إلا لصلاة الجمعة.٦

٦ – أبو عبد الله محمَّد العتبي بن أحمد بن عبد العزيز بن عتبة القرطبي، الفقيه الحافظ العالم، سمع من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وغيرهما ورحل فأخذ عن سحنون وأصبغ وغيرهما، وروى عنه محمَّد بن لبابة وأبو صالح وسعيد بن معاذ والأعناقي وغيرهم، ألف المستخرجة في الفقه، توفي سنة (٢٥٤هـ أو ٢٥٥هـ)٧.

٧ – عيسى بن مسكين بن منظور الإفريقي، أصله من العجم، سمع من سحنون وابنه، كان فقيهاً عالماً فصيحاً ورعاً مهيباً وقوراً ثقة مأموناً صالحاً ذا سمت وخشوع فاضلاً طويل الصمت دائم الحمد رقيق القلب غزير الدمعة كثير

---

١ مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. ج١، ص١١١.

٢ القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك. ج١، ص٣٧١.

٣ مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ص ١١٠/١11

٤ المصدر السابق. ج٤، ص٣٧١.

٥ عزب، الامام سحنون، ص ٢٠١

٦ الذهبي، سير أعلام النبلاء. ج١٣، ص٦٤.

٧ مخلوف. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. ج١، ص١١٢.

الإشفاق متفنناً في كل العلوم، قال أبو علي البصري: لو أفردنا كتابا في ذكر مناقبه ومحاسنه وزهده وورعه وعدله ما انتهينا إلى وصفه[1].

المطلب الخامس: ثناء العلماء على الإمام سحنون

أثنى عليه أبو العرب التميمي كثيرا وألف كتابا مفردا سماه" مناقب سحنون "، فقال: كان سحنون ثقة حافظاً للعلم فقيها اجتمعت فيه خلال قلّما اجتمعت في غيره، الفقه البارع والورع الصادق والصرامة في الحق والزهادة في الدنيا والتخشن في الملبس والمطعم والسماحة، وكان لا يقبل من السلاطين شيئاً، وربما وصل أصحابه بالثلاثين ديناراً أو نحوها.

قال أبو بكر المالكي: وكان مع هذا رقيق القلب، غزير الدمعة، ظاهر الخشوع متواضعاً، قليل التصنع، كريم الأخلاق، حسن الأدب، سالم الصدر، شديداً على أهل البدع، لا يخاف في الله لومة لائم.

وسئل أشهب من قدم إليكم من المغرب؟ قال: سحنون. قيل: فأسد بن الفرات؟ قال: سحنون والله أفقه منه بتسع وتسعين مرة.

وقال أشهب: ما قدم إلينا من المغرب مثله.

قال أبو حمديس: رأيت أبا مصعب بالمدينة، وغيره، وبمصر أصحاب ابن القاسم، وبمكة علماء من أهل بغداد، والله ما رأيت فيهم مثل سحنون ولا رأيته بعده[2]، وقال: كان العلم في صدره كسورة من القرآن.[3]

وكان عيسى بن مسكين يقول: "سحنون راهب هذه الأمة، ولم يكن بين مالك وسحنون أحد أفقه من سحنون".[4]

وقال سعيد بن الحداد: جالست المتكلمين، فكل من لقيت من أهل العلم، فما رأيت منهم أصح غريزة من سحنون، وكان وقوراً فقيها.

وقال بعضهم: دخلت على الملوك وكلّمتهم، فما رأيت أحداً أهيب في قلبي من سحنون.

قال ابن حارث: سحنون أمام الناس في علم مالك، وكان فاضلاً عادلاً، مباركاً، أظهر السنة، وأخمد البدعة.[5]

---

[1] ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. ج٢، ص٦٧.

[2] المصدر السابق. ج٤، ص٤٨،٤٩.

[3] المالكي، رياض النفوس. ج١، ص٣٢٥.

[4] انظر المصدر السابق. ج١، ص٣٥٣.

[5] القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك. ج٤، ص٥٣.

المطلب السادس: حكم الإمام سحنون

روي عن سحنون قال: من لم يعمل بعلمه لم ينفعه علمه بل يضره.

وقال سحنون: إذا أتى الرجل مجلس القاضي ثلاثة أيام متوالية بلا حاجة، فينبغي ألا تقبل شهادته.

وقال: أكل بالمسكنة، ولا أكل بالعلم، ومحب الدنيا أعمى، لم ينوره العلم[١].

وقال: ما وجدت من باع آخرته بدنيا غيره إلا المفتي.

قال الإمام سحنون: "أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه". وقال: "إياك أن تكون عدوا لإبليس في العلانية صديقا له في السر"[٢].

قال سحنون لابنه محمد: "يا بني سلم على الناس، فإن ذلك يزرع المودة، وسلم على عدوك وداره فإن رأس الإيمان بالله مداراة الناس."[٣]

ولما بلغ الإمام سحنون من العمر ثمانين سنة عمل طعاماً ونادى عليه بعض الخاصة فسئل عن سببه[٤]، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن بلغ عمره ثمانين سنة كتبت حسناته ولم تكتب سيئاته"[٥]

المطلب السابع: وفاته رحمه الله تعالى

تولّى الإمام سحنون القضاء سنة ٢٣٤ هـ، وأقام قاضيا ستة أعوام ولم يزل فيها إلى أن توفّاه الله[٦].

لم يختلف العلماء أن الإمام سحنون توفي في رجب، سنة أربعين ومائتين (٢٤٠ هـ)، قال أبو علي: يوم الأحد قبيل نصف النهار، لثلاث خلون منه، وقال غيره: لسبع خلون منه، ودفن في يومه وصلى عليه الأمير محمد بن الأغلب، ووجه إليه بكفن وحنوط، فاحتال ابنه محمد حتى كفّن في غيره. وتصدق بذلك،[٧] قال أبو الأحوص المتعبد: رأيته في المنام وقد تهيأ للخروج إلى المصلّى مع ابنه محمد، فأتيته بثوب أبيض، فقال لي: أما علمت أنا لا نقبل الهدية.

---

١ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٦٥/١٢

٢ http://www.ahlalhdeeth.com ، أرشيف ملتقى أهل الحديث – ٥

٣ ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. ج٢، ص٣١.

٤ مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. ج١، ص١٠٤.

٥ أخرجه أبو يعلى في مسنده الكبير؛ كما في مجمع الزوائد، ج١٠، ص٢٠٥، وابن الجوزي في كتاب الموضوعات، ج١، ص١٨٠، وفيه عزرة بن قيس ضعفه يحيى، وأبو اَلْحَسَن الكوفي مجهول، وأخرجه الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة برقم: ٥٩٨٣. وفي ضعيف الجامع برقم: ٤٠٤٣، وحكم عليه بالضعف.

٦ الزقور، أحسن، القواعد الفقهية المستنبطة من المدونة الكبرى. ج١، ص١١١.

٧ القاضي عياض، ترتيب المدارك. ج٤، ص٨٦.

فقلت: ليس بهدية، ولكن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أدفعه إليك، قال لي وأين رسول الله؟ فقلت له: ها هنا، حابس. فما قام سحنون إلا يسيراً حتى مات.[1]

قال أبو بكر المالكي: لما مات سحنون، رجتّ القيروان لموته، وحزن له النّاس.

قال سليمان بن سالم: لقد رأيت يوم مات سحنون مشايخ من أهل الأندلس يبكون ويضربون خدودهم، كالنّساء، يقولون يا أبا سعيد، ليتنا تزوّدنا منك نظرة، نرجع بها إلى بلدنا.

قال بعضهم لأبي بكر الحضرمي: رأيت في نومي رجلاً صعد إلى سماء الدنيا، ثم من سماء إلى سماء، حتى صار تحت العرش. فقال ينبغي أن يكون هذا سحنون، فقال الرائي: هو ذاك، وفي أولها: رأيت باباً فُتح في السماء، ونودي بسحنون فأتي به، فصعد. رحمه الله رحمة واسعة.

المبحث الثاني: جهود الإمام سحنون العلمية

رغم أن الإمام سحنون عاش مدة طويلة بلغت ثمانين عاما، إلا أنه كان قليل الاشتغال بالتأليف مكتفيا بما رواه في المدوّنة الكبرى التي كانت السبب في تركيز المذهب المالكي في بلاد المغرب العربي، ولهذا سنتكلم عن المدونة ونعرف بها.

المطلب الأول: ضبط اسم الكتاب

المدوّنة اسم مفعول للفعل دوّن، تقول دوّنت الكتب تدوينا إذا جمعتها، فهي عبارة عن مسائل فقهية مجموعة جمعها الإمام سحنون عن عبد الرحمن بن القاسم مما سمعه من الإمام مالك.

ويطلق عليها اسم المختلطة لاختلاط مواضيعها ومسائلها قبل أن يرتّبها ويهذّبها الإمام سحنون[2].

المطلب الثاني: نسبة المدوّنة إلى مؤلّفيها

تنسب المدوّنة إلى إمام دار الهجرة، أبي عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة، وهو حمير الأصغر الحميري، ثم الأصبحي، المدني، حليف بني تيم من قريش، فهم حلفاء عثمان أخي طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة، ولد سنة (٩٣ هـ)[3]، وهي من سماع الإمام عبد الرحمن بن قاسم بن جنادة العتَقي الإمام المشهور[4]، وهي عبارة عن أجوبة سئل عنها عبد الرحمن بن قاسم ، فأجاب عنها بما سمعه من شيخه الإمام مالك،

---

[1] انظر المصدر السابق. ج٤، ص٨٨.

[2] الزقور، القواعد الفقهية المستنبطة من المدونة الكبرى. ج١، ص١٢٣، ١٢٤.

[3] الذهبي، سير أعلام النبلاء. ج٨، ص٤٩.

[4] ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. ج١، ص٤٠٠.

وذكر محمد الجيدي: أن المدونة هي ثمرة مجهود ثلاثة من الأئمة : مالك بإجاباته ، وابن قاسم بقياساته وزياداته، وسحنون بتنسيقه وتهذيبه وتبويبه وبعض إضافاته [١]

المطلب الثالث: أصل المدوّنة الكبرى

المدّونة هي نسخة منقّحة من الأسدية لأسد بن فرات بن سنان مولى بني سليم، كنيته أبو عبد الله، قدم من خراسان من نيسابور إلى القيروان سنة (١٤٤هـ)، حفظ القرآن وهو ابن سنتين، ثم اختلف إلى علي بن زياد بتونس، فلزمه وتعلم منه وتفقه بفقهه وسمع منه " الموطأ"، ثم رحل إلى المشرق، فجمع من مالك ابن أنس موطأه ثم ذهب الى العراق فلقي أبا يوسف ومحمد بن حسن وكتب الحديث بالعراق وتفقه بها، ثم رحل من العراق بعد وفاة الإمام مالك بن أنس إلى مصر فلزم ابن القاسم وأخذ عنه الأسدية[٢].

كانت المدوّنة مؤلفة على مذهب أهل العراق فأخذ أسد بن الفرات الأسدية وقدم بها المدينة ليسأل عنها مالكاً ويردها على مذهبه فألفاه قد توفّي [٣]، قال أبو اسحاق الشيرازي: لما قدم أسد مصر أتى إلى ابن وهب وقال هذه كتب أبي حنيفة، وسأله أن يجيب فيها على مذهب مالك فتورع ابن وهب وأبى، فذهب إلى ابن القاسم فأجابه إلى ما طلب وأجابه فيما حفظ عن مالك بقوله، وفيما شك قال: أخال وأحسب وأظن به، ومنها ما قال فيه، سمعته يقول في مسألة كذا وكذا، ومسألتك مثله، ومنه ما قال فيه باجتهاده على أصل قول مالك، وتسمى تلك الكتب الأسدية[٤].

كان أسد بن فرات يغدو إلى ابن القاسم كل يوم فيسأله، ويجيب بن القاسم حتى كتب ودوّن ستين كتابا سماها الأسدية[٥].

وقدم بها أسد بن فرات إلى القيروان، فكتبها الناس وحصلت له بها رياسة كبيرة، فأنكر عليهم بعضهم وقالوا أجئتنا بأظن وأحسب، وتركت الآثار وما عليه السلف، فقال: "أما علمتم أن قول السلف هو رأي لهم، وأثر لمن بعدهم، ولقد كنت أسال ابن القاسم عن مسألة فيجيبني فيها، فأقول له: هو قول مالك؟ فيقول: كذا أخال وأرى، وكان ورعاً يكره أن يهجم على الجواب".

ومنعها أسد من سحنون، فتلطّف سحنون حتى وصلت إليه، ثم ارتحل سحنون بالأسدية إلى ابن القاسم فسأله عن تفسير بعض المسائل الغامضة، واستدرك فيها أشياء كثيرة، ونظر سحنون فيها نظراً آخر فهذبها وبوّبها ودوّنها وألحق

---

١ الزقور، القواعد الفقهية المستنبطة من المدونة الكبرى. ج١، ص١٢٥.

٢ المالكي، رياض النفوس. ج١، ص٢٥٥.

٣ مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. ج١، ص١٠٤.

٤ انظر المصدر السابق. ج٣، ص٢٦٩.

٥ عزب، الامام سحنون، ص ١٨٢

فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ما أختار ذكره وذيّل أبوابها بالحديث والآثار، فسميت بالمدونة والمختلطة [1]، فأنف أسد من ذلك وأباه، فبلغ ذلك ابن القاسم فدعا عليه ألاّ يبارك له فيها، وكان مجاب الدعوة، فأجيبت دعوته ولم يشتغل الناس بكتابه ومالوا إلى قراءة المدوّنة فنفع الله بها[2].

المطلب الرابع: محنة المدوّنة

سعى الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي (588 هـ)، إلى صرف الفقهاء عن المدونة، وذلك لما رأى من كثرة انشغالهم بالفروع الفقهية وتقليدهم للمذهب المالكي، فألزم العلماء بالاجتهاد وترك التقليد، فأمر بحرق كتب الفروع كلها، والاستعاضة عنها بكتاب جديد سُمِّيَ بـ «أعز ما يطلب» ولكنه لم يفلح فيما أراد، حتى خلفه ابنه أبو يعقوب يوسف، (٥٨٠ هـ)، فأمر بإحراق المدَوَّنة وسائر كتب الفروع بدعوى عدول الناس عن الكتاب والسنّة إلى ما فيها من روايات وأقوال الرجال، ولكن أمرَه لم ينفُذ إلا في عهد يعقوب المنصور، (٥٩٤ هـ)، فأحرقت المدَوَّنة، وابتلي الفقهاء في ذلك أشد البلاء، وقد وصف الحال التي آلت إليها الأمور عبد الواحد المراكشي بقوله: "وفي أيامه انقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن جرد ما فيها من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدوّنة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها، لقد شَهِدتُ منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال وتوضع وتُطلَق فيها النار، وتَقدَّم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيءٍ منه، وتوعَّد يعقوب على ذلك بالعقوبة الشديدة"، وكان قصده محو مذهب مالك من المغرب جملة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من الكتاب والسنة، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهراه، وأظهره يعقوب هذا، وقال ابن خلكان: أمر يعقوب المنصور الموحدي برفض فروع الفقه، وأحرق كتب المذهب وأن الفقهاء لا يفتون إلا من الكتاب والسنّة النبوية، ولا يقلّدون أحدا من الأئمة المجتهدين، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباط القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس، قال: ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا وهم على ذلك الطريق مثل أبي الخطاب، وتكررت عملية الإحراق في عهد ولده محمد الناصر، (٦١٠هـ)، فأمر بإحراق ما لم تلتهمه النيران في عصر والده من نسخ المدَوَّنة.

ولما جاءت الدولة المرينيّة نقضت ذلك كله وجدّدت كل الفروع، فأملى الفقيه أبو الحسن علي بن عشرين "المدونة" من حفظه، ووجدوا نسخة قوبلت عليها النسخة التي أملاها، فلم تختلف إلا بواو أو فاء.[3]

وقد كتب الله البقاء للمدونة وكذلك القبول حيث فضل أهل المغرب والأندلس دراسة المدونة عن غيرها من الكتب وكانوا يعتبرونها الكتاب والمرجع الأساسي للمذهب المالكي، وظلت المدونة تدرس في المساجد والمجالس والحلقات

---

١ القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك. ص ٢٩٩

٢ ابن رشد، القرطبي، المقدمات الممهدات. ج١، ص٤٥.

٣ الثعالبي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي. ج٢، ص١٩٩،١٩٦.

العلمية في بلاد إفريقية واعتنى بها العلماء عناية كبيرة حفظا ودراسة، كما ظهرت لها عدة مختصرات، وقد بارك الله للإمام سحنون في علمه وأبقى ذكره مخلدا في هذا الكتاب العظيم، فجزاه عن المسلمين خير الجزاء ورحمه رحمة واسعة في الدارين.

المطلب الخامس: القيمة العلميّة للمدونة

تميّزت المدوّنة الكبرى بسهولة الأسلوب، وحسن تنسيق الألفاظ ورصانة العبارات حيث رتّبت ترتيبا، وصنّفت إلى أبواب وفصول، فأصبحت المرجع الأساسي للمذهب المالكي مثلها مثل الموطأ[١].

قال سحنون: عليكم بالمدوّنة فإنها كلام رجل صالح وروايته، وكان يقول: إنما المدوّنة من العلم بمنزلة أم القرآن من القرآن، تجزي في الصلاة عن غيرها ولا تجزي غيرها عنها.[٢]

وقال أبو الوليد بن رشد: "أصل علم المالكيين، وهي مقدمة على غيرها من الدواوين بعد موطأ مالك رحمه الله"[٣].

وقال القاضي ابن عبد الرفيع التونسي في جواب له: "المدونة أجل كتب المذهب من إملاء ابن القاسم أجل تلامذة الإمام مالك "[٤].

وقد لقيت المدوّنة اهتماما كبيرا فظهرت لها شروحات والاختصارات، مما يدل على مكانتها العلمية في نفوس العلماء، حتى حفظها كثير من العلماء عن ظهر قلب مع كبر حجمها وتشعّب مسائلها، فقد جاء في نفح الطيب: "ولقد كان ولاة الأندلس يشترطون لتولية القاضي أن يكون مستظهرا للمدوّنة كما لا يسمح للفقيه بلبس القلنسوة وصعود المنبر إذا لم يكن يحفظ المدوّنة."[٥]

المطلب السادس: منهجيّة سحنون في المدوّنة

الأسدية هي الأصل الأول للمدوّنة، وقد قام الإمام سحنون بتوثيقها عن ابن القاسم، وبهذا يكون الإمام سحنون مكملا لعمل عظيم كان قد بدأه شيخه أسد بن فرات، ومن أبرز ما تميزت به منهجية أسد بن فرات في المدونة هي النزعة إلى الفقه الإفتراضي وتفريع المسائل على مذهب أهل الرأي في العراق، وهذا واضح في معظم مسائل المدونة[٦]، ولذلك أبقى الإمام سحنون منهجية أسد بن فرات مع إضافة ما يحتاجه إلى الإكمال، سأذكر بعضا منها على النحو التالي:

أ-التأكيد على معرفة قول مالك في المسألة، ومثال على ذلك:

---

١ عزب، الامام سحنون، ص ١٨٦

٢ القاضي، عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك. ج٣، ص٣٠٠.

٣ ابن رشد، المقدمات الممهدات. ج١، ص٤٤.

٤ التليلي، ابن رشد مقدمات الكتاب، ص٣٦٥

٥ الزقور، القواعد الفقهية المستنبطة من المدونة الكبرى. ج١، ص١٣٩، ١٤٠، ١٤٥.

٦ سعدي أبوحبيب، سحنون مشكاة نور وعلم وحق، ص ٣١

قال في المدوّنة، ج١، ص٢: قلت لعبد الرحمن بن القاسم، أرأيت الوضوء! أكان مالك يوقت فيه واحد أو اثنين أو ثلاثا؟

قال: لا! إلا ما أسبغ، ولم يكن مالك يوقت، وقد اختلف الآثار في التوقيت.

قال ابن القاسم: لم يكن مالك يوقت في الوضوء مرة ولا مرتين ولا ثلاثا، وقال إنما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:٦]، كان يقول: يتوضأ ويغسل ويسبغها جميعا.

ب- تذييل أبواب ومواضيع المدوّنة بالأحاديث والأثار.

ج-الحرص على كتابة سند الحديث، مثال على ذلك، ما في المدوّنة١/ ٢ :قال ابن وهب عن مالك بن أنس عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن حسن المازني عن أبيه يحيى أنه سمع جده أبا حسن يسأل عبد الله بن زيد بن عاصم، وكان من أصحاب رسول الله T وهو جد عمرو بن يحيى، هل تستطيعُ أن تريني كيفَ كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتوضَّأُ فقالَ عبدُ اللَّهِ بنُ زيدٍ نعم فدعا بوضوءٍ فأفرغَ علَى يدَيهِ فغسلَ يدَيهِ ثمَّ تمضمضَ واستَنثرَ ثلاثًا ثمَّ غسلَ وجهَه ثلاثًا ثمَّ غسلَ يدَيهِ مرَّتينِ مرَّتينِ إلى المرفقينِ ثمَّ مسحَ رأسَه بيدَيهِ فأقبلَ بِهما وأدبرَ بدأ بمُقدَّمِ رأسِه ثمَّ ذَهبَ بِهما إلى قفاهُ ثمَّ ردَّهما حتَّى رجعَ إلى المكانِ الَّذي بدأ منهُ ثمَّ غسلَ رجليهِ.

د-الاستفسار عن مصطلحات الإمام مالك وعما فيها من الغموض، ومثال ذلك: قوله في المدوّنة ٥٧/١: قلت ما معنى قول مالك: ثمّ شأنه بأعلاها؟

هـ-عدم ذكر تخريج الحديث ودرجته، والسبب في هذا راجع إلى أنّ المدوّنة قد دوّنت قبل كتب الحديث إلا كتاب الموطأ.

و- حرص الإمام سحنون على ترتيب مسائل المدونة وتبويبها حسب أبواب الفقه.

ز- الاستفسار عن قول مالك إذا أشكل عليه هل هو قول مالك أم هو قول ابن القاسم، كأن يقول أهذا قول مالك؟ أهو قول مالك؟

ك- إظهار رأيه في المسألة، ومثال ذلك: قال في المدونة ٢٧٣/٣: قال سحنون: ويدل على أنها معروف-العرايا في التمر-وأنها لا تزال على وجه البيع والمكايسة وأنها رخصة: لما فيه من الرفق لمن أريد إرفاقه وطرح المضرة عمن أرفق لما يدخل عليه من واطئة الرجل والأذى لحائطه: ما ذكر ابن لهيعة، وإن كان مالك لا يأخذ ببعضه ولكن يدع من أنكر ذلك.

ل- وضع اللبنة الأولى للفقه المقارن داخل المذهب المالكي، مما جعله فقها مرنا يستجيب للقضايا المستجدة، قال الشيخ أبو زهرة معقبا على المدونة: "إن المدونة تشمل آراء مالك المروية وآراء أصحابه، وتخريج ابن القاسم على أصول مالك فهي في الواقع قد سنّت سبيل الفقه المقارن بموازنة آراء مالك بآراء أصحابه، وهي قد سنّت

أيضا السبيل لتخريج المسائل على أصول مالك ونسبتها إليه على هذا الاعتبار، وبذلك فتح باب التخريج في ذلك المذهب العظيم منذ عصره الأول، والتخريج في المذهب: سبيل نموه، وأساس شمول أحكامه، لأنّ الحوادث لا تنتهي، وإذا كان الفقهاء الذين نشروا المذهب حاولوا اتباعها في كل ما يجد من أحداث، فلا بد من التخريج على أصول الأئمة، وقد وضع ابن القاسم الأساس فبنى عليه من بعده" [1].

المطلب السابع: مختصرات المدونة وشروحها[2]

بعدما رجع الإمام سحنون بالمدوّنة من مصر وقد صحّحها عل شيخه ابن القاسم، بدأ يرتبها ويهذبها ويذيلها بالآثار، إلا أن المنيّة عاجلته قبل أن ينتهي من ترتيبها، حيث بقيت بعض الأبواب على حالها مختلطة، وبما أن المدوّنة أصبحت هي أصل المذهب، فقد كثرت الشروح والمختصرات، وسوف أذكر من تناولها بالشرح والاختصار على النحو التالي:

أ-بعض ما تناول المدونة بالشرح:

١-أول من شرحها هو ابنه الإمام محمد بن سحنون

٢-أحمد بن نصر الداودي

٣-أبو القاسم خلف بن أبي القاسم الأزدي المعروف بابن البراذعي له عليها شرح أسماه: "الشرح والإتمام لمسائل المدونة".

٤-أبو الطاهر إبراهيم بن عبد الصمد بن بشير التنوخي، له شرح عليها أسماه: "التنبيه على مسائل التوجيه".

٥-محمد بن علي بن عمر التميمي المازري (ت ٥٣٦هـ)

٦-أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (ت ٥٢٠هـ) له شرح عليها أسماه: "المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته المدونة من أحكام".

٧- أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت٤٧٤هـ) صاحب المنتقى في شرح الموطأ له شرح عليها

٨-أبو علي سند بن عنان بن إبراهيم الاسدي (ت٥٤١هـ) له شرح عليها أسماه "الطراز"

ب- بعض من تناول المدوّنة بالاختصار:

-حميديس بن ابراهيم بن أبي محرز اللخمي القفصي

-محمد بن ابراهيم اللخمي (ت:٢٩٩هـ)، وقد اشتهر اختصاره بين طلبة القيروان

-أبو سعيد البراذي، "التهذيب في اختصار المدونة".

-"كتاب المهذب في اختصار المدونة " للقاضي أبي الوليد الباجي (ت ٤٠٣هـ)

-" التقريب" لأبي القاسم خلف، المعروف باليرالي، مفتي بلنسة (ت٤٣٣هـ)

---

[1] الزقور، القواعد الفقهية المستنبطة من المدونة الكبرى، ص ١٦٤إلى١٦٩

[2] البراذعي، التهذيب في اختصار المدوّنة، ص ٣٩ إلى ص٤١، الزقور، القواعد الفقهية المستنبطة من المدونة الكبرى، ص ١٤١ إلى ص ١٤٤

-" الملخص في اختصار المدوّنة" لأبي القاسم عبد الرحمن بن محمد الحصري المعروف باللبيدي القيرواني (ت٤٦٦هـ)

-"نظم الدرر في اختصار المدوّنة" لعبد الله بن عبد الرحمن بن عمر المعري (ت ٦٦٩هـ)

فهذه مجموعة قليلة من الشروح والاختصارات من الفقهاء الذين اهتموا بها اهتماما بليغا، وذكر عمر الجيدي في كتابه" محاضرات في تاريخ المذهب المالكي" ما يقارب ثمانين شرحا واختصارا، ممّا يدل عل مكانتها في نفوس العلماء على مر العصور، ولا تزال المحرك الأساسي لنمو المذهب وتطوره.

وفي الختام أرجوا أن أكون قد قدمت بهذا البحث رد الجميل لإمامنا سحنون، فقد بذلت فيه قصارى جهدي، فإن كنت أصبت فذلك من فضل الله تعالى وعظيم توفيقه، وإن كنت أخطأت فذلك منّي ومن الشيطان، وأسال الله عز وجل أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به، إنه سميع قريب مجيب.

الخاتمة

أخلص أهم ما توصلت إليه من نتائج فيما يلي:

١ – فضل الإمام سحنون ومكانته العلمية في تاريخ الأمة الإسلامية فقد ألف واحدة من أكبر وأهمّ مدوّنات فقه مالك، وهي المدوّنة الكبرى.

٢ – بروز شخصية الإمام سحنون في الجمع بين الفقه والسياسة، وقلّما نجد شخصية مثلها، حيث كان الإمام سحنون فقيها وقاضيا.

٣ – همّة العلماء وإخلاصهم في طلب العلم، وبذل الجهد في نشره، وتوريثهم له لمن بعدهم من تلاميذهم.

٤ – المكانة العلمية للمدونة الكبرى، وعناية علماء المالكية بها واتخاذها مرجعا أصيلا للمذهب المالكي.

وفي النهاية ننبه طلبة العلم إلى بذل الجهد والحرص على العناية بسيرة أئمتنا العطرة وإبرازها للأمة، للاقتفاء بأثرهم والاستنان بسنتهم واتباع هديهم، فاحرص يا طالب العلم على الاقتداء بأسلافنا الصالحين وأئمتنا بالاطلاع على سيرهم واقتفاء أثرهم، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصبحه أجمعين، آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١. القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، مطبعة فضالة – المحمدية، المغرب، الطبعة الأولى .

٢. ابن رشد القرطبي، المقدمات الممهدات ، دار الغرب الإسلامي ،الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

٣. الزقور، أحسن، القواعد الفقهية المستنبطة من المدونة الكبرى ، دار بن حزم ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٥م – ١٤٢٦هـ

٣. ابن فرحون، برهان الدين اليعمري ، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.

٤. الجرجاويّ، خالد، شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، دار الكتب العلمية – بيروت–لبنان.

٥. المالكي، عبد الله، رياض النفوس ، دار العرب الاسلامي بيروت – لبنان .

٦. عزب محمد زينهم ، الامام سحنون ، طبعة دار الفرجاني القاهرة .

٧. عمر بن صالح بن عمر ، المدخل الى دراسة الفقه الاسلامي ،كلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة ، الطبعة الثالثة ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م .

٨.ابو جيب، سعدي، سحنون مشكاة علم ونور وحق ، دار الفكر دمشق.

٩.الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة. ١٤٠٥هـ

١٠.ابن خلكان، شمس الدين البرمكي، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر بيروت.

١١.الأشقر، محمد، الواضح في أصول الفقه ، دار النفائس ، الطبعة السابعة ١٣٢٣ هـ – ٢٠٠٨ م .

١٢.مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م .

١٣.شلبي، محمد مصطفى، المدخل في الفقه الإسلامي ، الدار الجامعية ، الطبعة العاشرة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م

١٤.عزب، محمد زينهم محمد، الامام سحنون ، دار الفرجاني، القاهرة، مصر.

١٥.الثعالبي، محمد بن الحسن بن العربيّ بن محمد الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، دار الكتب العلمية –بيروت–لبنان، الطبعة: الأولى – ١٤١٦هـ– ١٩٩٥م

١٦.التليلي، المختار بن طاهر، ابن رشد مقدمات الكتاب، الدار العربية للكتاب.

١٧.العبدة، محمد، نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون، مركز الرسالة للدراسات والبحوث الانسانية، القاهرة، مصر.

١٨. **http://www.ahlalhdeeth.com**

١٩. **http://www. dorar.net.**

٢٠. **http://www.saaid.net/mktarat/alalm/67.ht**